

نماذج من كتابات حول المعلم بطرس البستاني

(وفقًا للتسلسل الزمنيّ)

هذا وإتّنا لا نغالي فيما إذا قلنا إنّهُ أبدى من العزيمة الماضية والهمة السامية في تأليف الكتاب وطبعه ما لا يُتوقّع من رجل واحد ولا سيّما في ديار الشرق. ولكنّه ألقى هو وولده الفاضل سليم أفندي من مواطنيه و كلّ أهل المطالعة والأدب عمومًا ومن الحكومة المصريّة خصوصًا يدًا بالندى نديّة. أمّا الحكومة المصريّة فارتاحت أيّما ارتياح إلى اقتناء هذا الكتاب شدًا لأزر صاحبه أوّلًا وحبًا للنفع إلى مدارسها ومكاتبها ومحافلها العلميّة ثانيًا. لا حرم أنّهُ لا أولى بالثناء ممّن اشترك في المساعدة و المعاونة. ثمّ إنّ الذي يعلم من تاريخ الإنسكلوبيديات الإبتدائيّة الاوربيّة أنّها لم تكن في منشأ أمرها على ريع ما هي عليه "دائرة المعارف" من إحكام التأليف و غزارة المادّة والضبط وحسن الطبع والورق والتجليد والصور مع قلّة في الثمن لا أقلّ منه إلا أثمان الكتب العاديّة. فحقّق إذًا لأبناء اللغة التباهي والتفاخر بذلك الرجل الذي وصفه أحد فلاسفة العصر "بالجبار" في أعماله لما أنه لم يبالي قط بالمنايا في ميدان الكفاح العلميّ. ولا امتنع عن الكرّ والفرّ وإن علت الأسوار وعمقت الخنادق. ولو لم يكن غير هذا المشروع لكفاه. فكيف وقد تقدّمته تأليفات عديدة وترجمات كثيرة تسبقها وتعقبها ألوف من الخطب والعظات ارتجاليّة كانت أو غير ارتجاليّة.

الفيلسوف فيليب دي طرازي،

من كتاب تاريخ الصحافة العربيّة، الجزء الأوّل، بيروت، المطبعة الأديبة، ١٩١٣، ص ٩١.

###

ومّا لا شكّ فيه في أنّ بطرس البستاني كان من أغزر اللبنانيين علمًا ومن أكثرهم إنتاجًا في عصره. وكان من أعظم علماء الشرق العربيّ. فقد كان صحافيًّا، وصاحب مجلّات يصدرها ويحرّرها. وكان مؤلّفًا يضع الكتب المدرسيّة. وله معجم مشهور (محيط المحيط) وأصدر دائرة معارف. وبعض كتبه المدرسيّة في اللغة والرياضيات لا تزال من الكتب التي يُرجع إليها حتّى في عصرنا هذا. ومعجمه محيط المحيط (بيروت ١٨٧٠، في مجلّدين) ومختصره قطر المحيط (بيروت ١٨٦٩، في جزئين) بالرغم من أنّهما لم يطبعا مرّة ثانية ولم ينقّحا فإنّهما من أحسن المعاجم حتّى في يومنا هذا. وهنالك معاجم عربيّة قديمة أقدم من محيط المحيط، ولكنها معاجم ضخمة تعجّ بالمئات من الألفاظ. ناهيك عن سوء ترتيبها الهجائيّ، فإنّها في ترتيبها الهجائيّ تعتمد الحرف الأخير من الجذر الثلاثيّ. أي أنّ فعل لعب يفتش عنه في باب الباء فصل اللام. وبدأ بطرس البستاني بتأليف دائرة معارف، أصدر منها ستّة مجلّدات (بيروت ١٨٧٦-١٨٨٢) وقد أضاف إليها ابنه سليم بالتعاون مع سليمان البستاني خمسة مجلّدات أخرى (بيروت ١٨٨٣-١٩٠٠). وأقرب عمل

علمي ثقافي لهذا الجهود الجبار الذي قام به البستاني هو محاولة ترجمة الموسوعة الإسلامية إلى اللغة العربية التي لم تكمل بعد. وبدأ البستاني حياته الصحافية بإصدار "نفيّر سورية" (١٨٦٠). وبعد عشر سنوات أصدر صحيفة أسبوعية "الجنتة"، وكان يحزرها ابنه سليم، ثم مجلة نصف شهرية "الحنان" وفي سنة ١٨٧١ أصدر "الجنتة" وكان يحزرها نسيبه سليمان البستاني.

فيليب حتّي،

من كتاب لبنان في التاريخ، منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، ترجمة الدكتور أنيس فريجه، مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر، بيروت - نيويورك، ١٩٥٩، ص ٥٦١ - ٥٦٢ .

####

يذكرني أسلوب المعلم بطرس بترجمة العصر العباسي الذين أغنوا النهضة الأولى علمًا ومعرفه. ليس للمعلم بطرس بلاغة الكتاب الكبار ولا إبداعهم ولا صحّة عباراتهم... فهو مترجم وناقل، وقد أصاب فيما فعل، لأنّ البلاغة، وإن كانت تنقصنا في ذلك العصر، فقد كنا أحوج إلى الفنون الحديثة وعلوم العصر الجديدة. فالرؤاد الأول لم يترجموا إلى العربية إلّا ما احتاجوا إليه من الكتب لخدمة الدين. فمن يقرأ آثار المعلم بطرس، جرائده ومجلاته وتآليفه، يجد أن هذا الرجل العظيم القدر، الفذّ الهمة، كان يهمله أن ينقل إلى لسان العرب ما ينعف ويفيد وأن يجدّد طريقة التصنيف. وحبّه التسهيل في كلّ ميدان حمله على الكتابة بالأسلوب الذي اعتمده الترجمة النصارى، في عهد هارون والمأمون وغيرهما. وها أنا أجول وأيتك في "جنانه" دون كتبه الأخرى التي يعرفها كل قارئ. فشعار الحنان: حبّ الوطن من الإيمان، ولعلّ هذا كان من أسباب تمسك المعلم بزبّه اللبناني، فهو وطني صميم، وفرّد قام بأعمال تعجز عنها الجماعات، وإن لم نبالغ قلنا كما قالت فيه المقتطف: "وإذا أعملنا النظر في الأعمال التي اصطنعها لوازنت أعماله أو فاقت أعمال ثلاثة رجال من فضلاء الناس بعيدي الهمة ماضي العزيمة غزيري العلم والمعارف".

مارون عبود،

من كتاب رؤاد النهضة الحديثة، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٦، ص ٢٠٤-٢٠٥.

####

وفي حريف السنة ١٨٦٣ أدرك البستاني الكبير وجوب زرع بذور المحبة والوثام في أفئدة صغيرة طاهرة، في أفئدة الأطفال، فتنمو بنمائها ويحني المستقبل ثمارها. فأسّس مدرسةً وطنيّة لا طائفية وقيل الطلبة من جميع الطوائف والمذاهب. فتقاطروا إليها من كلّ الجهات. فكان يدرس فيها اللبناني والسوري والمصري والتركي واليوناني والعراقي والعجمي جنبًا إلى جنب. وكان المعلم بطرس يتولّى رئاستها ويعلم فيها صفاً باللغة الإنكليزية ويخطب في التلاميذ مرّتين في الأسبوع يحثّهم على التقوى والفضيلة ومكارم الأخلاق. وكان نهار الأحاد والأعياد يرسل كلّ فئة من الطلبة النصارى مع معلّم إلى كنيسة طائفتها. وكان ابنه سليم يتولّى الرئاسة في غيابه ويعلم الصف الأول الإنكليزي،

وكانت ساره أخته تعلّم صغًا إنكليزيًا آخر. ونرى بين أسماء المعلمين الآخرين أسماء الشيخ إبراهيم اليازجي والشيخ يوسف الأسير والشيخ قبلان الدحداح والمعلم سعد الله البستاني والمعلم يوسف الباحوط والمعلم إبراهيم نصيف والمعلم خليل ريز والمعلم سليم تقلا. ونحنت المدرسة نجاحًا باهرًا وكافأت الحكومة العثمانيّة البستاني بوسام مجيديّ على إنشائها وزارها الولاة مشجعين.

أسد رستم،

لبنان في عهد المتصرفيّة، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٢، ص ١١١.

####

في سرد ما تقدّم من المؤلّفات، والمؤسّسات، والأعمال المختلفة براهين واضحة على ما كان عليه المعلم بطرس البستاني من شخصيّة بارزة مؤثّرة، ومن جرأة في الإقدام على المشاريع العامّة، ومن رغبة في إفادة بني قومه، وتضحية في سبيلها. يقرن ذلك إلى معارف واسعة، وبصر دقيق في الأمور، ونظر بعيد إلى المستقبل؛ مع حزم في الإدارة، وإخلاص في العمل.

كلّ هذا كان عاملاً قويًّا على رفع مقامه في عيون معارفه من الوطنيين والأجانب حتّى كان لكلمته أعمق تأثير في البيئات السياسيّة العالية، والجامع الوطنيّة. وكان الكثيرون لا يتراجعون أمام استشارته في أشغالهم، فلا يبخل عليهم بوقته، على شدّة حرصه عليه، ويصرفهم جميعًا مسرورين، شاكرين له دقّة ملاحظاته، ووضوح آرائه.

وكان يجتهد في أن يجعل ذلك الوضوح في كلّ أعماله، ولا سيّما العقليّة منها. حتّى إنّ من يطالع تأليفه العديدة، سواءً أكانت لغويّة أم علميّة أم تهيبيّة، يلمس فيها تلك الرغبة في الوضوح والجلال، ويرى أمامه هيكل المؤلّف بارزًا في التقسيم العقليّ والتبويب الطبيعيّ، فلا يجد أدنى صعوبة في فهمه. وكذلك القول في مبنى تأليفه وسهولة إنشائه. ولعلّ له الفضل الأكبر في هذا الأمر. فإنّه بينما كان الكثيرون من أدياء القرن التاسع عشر يسرون وراء الاقدمين فيقلّدون إنشاءهم المنمّق باستعمال استعاراتهم الباردة، وجناساتهم المضحكة، وأسجاعهم التافهة، وسائر طرق زخارفهم التي لم يكن يفهمها مجتمع القرن التاسع عشر، فيضيّعون وقتهم غير نافعين، ووقت قرائهم غير مستفيدين؛ كان المعلم بطرس يختار من الألفاظ أبسطها، ومن التعابير أسهلها، ومن الأساليب الإنشائيّة أسدجها. حتّى إنّ من يطالع الأجزاء الأولى من مجلّة "الجنان" يستغرب وجود تلك الأفكار السامية، وتلك الملاحظات الدقيقة، تحت تلك الكلمات البسيطة، والجمل التي تجاور الركافة أحيانًا. ولكنّه إذ يُعمل عقله وينتقل إلى عصر الكاتب، ينحني إجلالاً أمام من رغب حقيقة في منفعة بني قومه فخطّ أمامهم سبيلًا سهلًا من الإنشاء سار عليه أولاده من بعده.

فؤاد افرام البستاني،

من كتاب الروائع، ٢٢، المعلم بطرس البستاني، الطبعة الرابعة، (ط.١: ١٩٢٩)، ١٩٧٥، ص ٨٢ - ٨٤.

####

وفي ١٨٦٣، أسّس "المدرسة الوطنيّة" وأقامها، كما يدلّ اسمها، على مبدأ وطنيّ لا دينيّ. وقد أعار دراسة اللغة العربيّة والعلوم الحديثة فيها عناية خاصّة. فكان يكرّس، بالواقع، معظم نشاطه لإحياء معرفة اللغة العربيّة وبثّ محبّتها في القلوب. وقد أسهم في قاموسه العربيّ "المحيط"، وموسوعته العربيّة "دائرة المعارف"، والنشرات الدورية التي كان يرئس تحريرها، في خلق نثر عربيّ حديث، صالح للتعبير البسيط الدقيق المباشر عن مفاهيم الفكر الحديث. وهكذا نشأت، على يد الحلقة المنعقدة حوله من أبنائه وأقربائه وأصدقائه وتلاميذه، القصّة والرواية العربيّتان الحديثتان والصحافة العربيّة الحديثة.

أما ما تبقى من مجهوده، فكان منصبًا على نشر الفكرة القائلة بأنّ الشرق الأدنى لا ينهض إلّا بالاطلاع على فكر أوروبا الحديثة واكتشافاتها. لكنّه لم يكن ليرضى بالتقليد الأعمى الذي لا يميّز بين الصالح والطالح. فالقبول بالعادات الأجنبيّة لمجرّد كونها أجنبيّة كان لا يقلّ في نظره حماقة عن رفضها لمجرّد كونها أجنبيّة، وهو ما كان يلمسه في طبع السوريّين. فالواجب هو أن تُقبل هذه العادات أو تُرفض حسب قيمتها. وقد وجد، على ضوء هذه النظرة، كثيرًا ممّا يُنتقد من العادات الأوروبيّة (التي عرفها فقط عن بعد)، كحرّيّة الرجال الزائدة في تصرفهم مع النساء مثلاً. لكنّه وجد فيها أيضًا كثيرًا ممّا هو جميل ولا مبرّر للتردّد في اقتباسه...

وكان للعرب في الماضي مدنيّة عظيمة يدي البستاني اعترازه بها. مقتنعا بعروبة جميع الناطقين بالضاد من مسيحيّين ومسلمين. وقد أخذت أوروبا عن العرب عندما كانوا في أوج عظمتهم.

ألبرت حوراني،

من كتاب الفكر العربيّ في عصر النهضة، ١٧٩٨-١٩٣٩، الطبعة الرابعة، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٨٦، ص ١٢٧-١٢٨.

###

إن إسباغ صفة "رجل سابق لعصره" على المعلّم بطرس البستاني ليس من باب المبالغة والمغالاة، لأنّ الأعمال المهمّة والمفيدة التي خلّفها لنا هذا "المحبّ للوطن" تدلّ دلالة واضحة على أنّ هذه الصفة ليست مجانية للحقيقة ولا مغايرة لها بشيء، لا بل إنّ لسان حاله يقول: "هذه آثارنا تدلّ علينا".

لقد قام بوضع مآثر علميّة مميّزة لتعميم المعرفة تتناول حقولاً فكريّة ونواحي إجتماعيّة متعدّدة باللغة العربيّة، لا يزال أبناء الضادّ في عصرنا هذا يعتمدون عليها في دراساتهم وأبحاثهم، تشهد له بالريادة وقصب السبق، وتعتبره من أهمّ أركان النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر، أو على حدّ قول معاصره وزميله في مشاقّ التدريس والتأليف والترجمة، الدكتور كرنيليوس فان ديك: إنّ كان "السابق إلى كل مأثرة علميّة، وعالمنا وغارس أفنان المعرفة في وطننا".

نقتطف من هذه المآثر ما يلي على سبيل المثال:

أولاً: صرخة الحقّ التي أطلقها في بيروت ما بين سنتي ١٨٤٧ و ١٨٥٢ على أعضاء "الجمعيّة السوريّة" داعياً إلى "تعليم النساء" لأنّ العلم ليس وقتاً على الرجال، وذلك كي تصبح المرأة في مجتمعها عضواً مهماً يؤهلها القيام بالواجبات الملقاة على عاتقها كما يجب.

ثانيًا: صرخته المدوّية سنة ١٨٦٠، مستنكرًا الأعمال البربرية التي جرت في الحرب الأهلية في لبنان، داعيًا إلى الألفة والاتحاد في نشرته الدورية التي دعاها نفيير سورية. ثمّ تأسيسه "المدرسة الوطنية" في بيروت سنة ١٨٦٣ لتطبيق مبادئ الوحدة الوطنية التي نادى بها، بحيث تكون أبواب هذه المدرسة مفتوحة على "مصراعيها لجميع أبناء الوطن، لأن ذلك هو السبيل الأمثل والوحيد الذي يجب أن تسلكه المدارس في ربوع بلادنا المتشعبة المذاهب والمشارب والتيارات".

ثالثًا: تأليفه كتاب محيط المحيط، سنة ١٨٦٩، كقاموس لمفردات اللغة العربية، وذلك "خدمة للجيل الحاضر والأجيال المستقبلية" لأنّ الاختلاف السائد لمعاني الألفاظ بين الناطقين بالضادّ كان "عقبة كأداء في سبيل تعميم هذه اللغة".

رابعًا: تأليفه كتاب دائرة المعارف، سنة ١٨٧٦، لتعميم المعرفة ولترقية "أسباب التمدّن والثروة والرفاهية والعلوم والمعارف".

يوسف قزما خوري،

من كتاب رجل سابق لعصره، المعلم بطرس البستاني، ١٨١٩-١٨٨٣، عمّان (الأردن)، بيروت، المعهد الملكي للدراسات الدينية، بيسان للنشر والتوزيع، ١٩٩٥، ص ٧-٨.

###

أمّا في ميدان التّأليف فقد ترك المعلم بطرس البستاني آثارًا كان لها أبلغ الأثر في ثقافة عصره. فبالإضافة إلى إسهامه في ترجمة التوراة ترك كتبًا عديدةً في حساب الصرف والنحو واللغة والأدب، كما ترك عددًا من الخطب والمحاضرات والمقالات التي كان يلقاها في الجمعيات ويدبجها في الجرائد والمجالات. إلا أنّ أهمّ مؤلفاته اثنان:

الأول: "دائرة المعارف" التي عرّفها بقوله إنّها قاموسٌ عامٌّ لكلِّ فنٍّ ومطلب، وقد صدر منها في حياته ستّة أجزاء، وصدر منها بعد وفاته خمسة أجزاء اشتهر فيها أبنائه وبخاصّة سليم، ونسيبه سليمان، وتوقّف العمل قبل أن يكتمل المشروع. وتعتبر هذه الموسوعة أول موسوعة وطنية قائمة على المنهج الحديث في التّأليف.

الثاني: معجم "محيط المحيط"، وهو أول قاموسٍ عصريّ في اللغة العربية طبعه في مجلدين كبيرين في بيروت سنة ١٨٧٠، ورفعته إلى السلطان العثمانيّ، فنال عليه "الوسام المجيديّ الثالث". ولا يزال هذا المعجم أحد أهم المعاجم العربية الحديثة، يحتاج إليه كلّ عالم وطالب، رغم مرور أكثر من مئة عام على تأليفه. ذلك أنّه ربّبه على حروف المعجم بأعتبار الحرف الأوّل من الثلاثيّ المُجرّد، وجمع فيه كثيرًا من مصطلحات العلوم والفنون، سواءً منها القاموسية أم المعرّبة؛ وشرح أصول بعض الألفاظ الأجنبية؛ وجمع كثيرًا من الألفاظ العامية الحيّة وفسّرها؛ واعتمد المعجم القديمة الموثوقة؛ واستخدم العبارة البسيطة. يمكن القول أخيرًا إنّ المعلم بطرس البستاني، الذي

توفي سنة ١٨٨٣، كان أول من أسس مدرسة وطنية عالية، وأول من ألف قاموساً عربياً عَصْرِيًّا مطوّلاً ، وأول من أنشأ مجلة راقية ، وأول من ابتداء بمشروع دائرة معارف باللّغة العربيّة، فكان بحقّ واحداً من أكبر زعماء التّهضة الحديثة.

ألبير مطلق،

من كتاب محيط المحيط، قاموس مطول للغة العربيّة ، مكتبة لبنان ناشرون، إعادة الطبع، ١٩٩٨، صفحة الجهة اليسرى من الغلاف الخارجي.

####

الطليعيّ في الثقافة العربيّة الحديثة

"كان من أبرز رواد " النهضة العربية الحديثة؛ كان أول من أطلق المفهوم الحديث لعبارة " وطن" وجعل "حبّ الوطن من الإيمان"؛ وأول من أسس "مدرسة وطنية" حديثة لأبناء كلّ الطوائف الدينيّة وكلّ الطبقات، وساهم في تأسيس أول جمعيّة ثقافيّة حديثة مستقلة عن السلطات الرسميّة، وذات نظام داخليّ مكتوب... وأول من رفع الصوت عاليًا داعيًا إلى "تعليم النساء"... وأول من وضع معجمًا حديثًا للغة العربيّة بحسب الترتيب الأبجديّ؛ وأول من وضع موسوعة عربيّة، وحتّى قبل عشر سنوات من وضع أول موسوعة تركيّة!... وأول رئيس "للمجمع العلميّ الشرقيّ"... وأكثر الرجال علمًا ونشاطًا ونجاحًا ونفوذًا في سوريا الحديثة".

أنطوان سيف،

من كتاب ثلاثة حكماء من جبل لبنان، بطرس البستاني، كمال جنبلاط، عادل إسماعيل، لبنان، مؤسّسة أنطوان الجليخ وإخوانه، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ص ٤٢-٤٣.

####

والبستانيّ علمٌ اجتماعيّ وتربويّ. نرى إسهامه النهضويّ في خطبه وصحفه ومدرسته الوطنيّة. وهو قائد سياسيّ نظر إلى استقلال لبنان، ووحدة العرب، على قاعدة المدنيّة والحريّة الفكرية والمساواة بين أبناء الشعب من دون تمييز، أو فرق في الدين، أو الأصول. واعتبرناه متميزًا في العلم والثقافة من خلال خطابه في "آداب العرب"، و"دائرة المعارف"، ومن خلال أعماله الأخرى.

ورأيناه مصلحًا اجتماعيًا وناقداً للعادات والتقاليد. انتقد الجهل والتعصّب وطرق التدريس المتخلّفة، وطرح النموذج الوطنيّ فكراً وعملاً من خلال مدرسته الوطنيّة. وآمن بالمساواة بين المرأة و الرجل، فكان خطابه "تعليم النساء" فاتحة لهذه الدعوة. فحذا حدوه الكثيرون من المرّتين والأدباء والمفكرين.

كان البستانيّ أحد أغزر اللبنانيين علمًا، ومن أكثرهم إنتاجًا في عصره. وكان أحد علماء العرب البارزين. فقد كان صحفيًا متميزًا بمؤسّساته المعروفة. وكان مؤلّفًا للكتب المدرسيّة، وله معجم مشهور "محيط المحيط"، وصاحب "دائرة المعارف". وهو أوّل من أنشأ في هذا الباب. وأهمّ من هذا كله، طرحه رؤية اجتماعيّة-وطنية-قومية، توخّى من خلالها ولادة لبنان الجديد، وولادة العروبة المتمدّنة. إنّ النواة النهضويّة التي طرح خطوطها العامّة نمت وبسقت حقيقةً وطنيّة كبرى بكلّ خصائصها. ونلاحظ أنّ رؤية المعلّم بطرس البستانيّ في أطروحته الاجتماعيّة والوطنية، من استقلال الوطن إلى توحد العرب، تمثّل وعيه للعلاقة بين المحتوى الثقافيّ للحضارة العربيّة، وبين الواقع الاجتماعيّ/السياسيّ الذي يعيش فيه اللبنانيون والعرب عمومًا. فطرح، في هذا المجال، منظومة رؤيويّة متكاملة للنهضة العربيّة التي لا تزال تتوخّى رسوخها وتطوّرها.

فايز علم الدين القيس،

من كتاب أثر المعلم بطرس البستانيّ في النهضة في لبنان، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥، ص ٣٢٦.

####

قال الدكتور فان ديك مؤننًا لما صلّي عليه في الكنيسة:

إن لم يكن لك في نقد الرجال
فانظر إلى الموت كيف الموت ينتقد
يدور في الأرض حول الناس ملتئمًا
كريم قسوم ولا يرضى بما يجد

هذه هي مصيبتنا أنّه لا يرضى بما يجده فلو رضي لقدّمنا له بدل الواحد عشرة ولكنّه ينقّي من الغابات أعلى أرزها ومن المروج أزكى رياحينها.

إني لمظلوم بوقوفي هنا اليوم خطيبًا لأنّ المقام الذي أرغبه والذي يليق بي هو وسطكم أبكي وأنوح على أخي وحببي الذي خُطف من بيننا خطفًا. معلّم وأستاذي ورفيقي فكم من الليالي أحييناها معًا في الدروس والمطالعة والتأليف وحلاوة المعاشرة الصادرة عن اتحاد المقاصد والأغراض فكيف أفق فوق جثته خطيبًا ولا أركع بجانبه حزيبًا كئيبًا.

منذ ثلاث وأربعين سنة جاء إلى مدينتنا هذا الفقيد وهو تلميذ شهير من مدرسة شهيرة. بارعٌ بالعربيّة والسريانيّة، عارفٌ اللاتينية يتكلّم بالإيطاليّة، ولم يلبث حتّى اكتسب اللغة الإنكليزيّة، ثمّ درس أيضًا العبرانيّة واليونانيّة، وكلّ ذلك حبًّا بالمعارف ورغبة في اكتساب كلّ ما أعانه على إفادة أهل بلاده. وأخذ يعلم ويؤلّف ليس كالمضطرّ بل إنّما برغبة المغمز الراغب. فإنّ ألف ألقي كلّ قلبه في التأليف وإن علّم نسي كلّ شيء حتّى الطعام من أهمّك عقله في التعليم ومن شدّة رغبته في اكتساب تلاميذه. وكم له من التلامذة، بين السامعين صوتي الآن، يصادقون على صحّة قولي هذا. وبقي على هذا الاجتهاد الجهد الجهد إلى آخر رمقٍ من حياته. فكم من مرّة كنت أنصح به بأن يخفّف عن تعب عقله قليلًا مراعاة لصحته فكان جوابه على الدوام يجب أن نموت والقلم في يدنا. وأتذكّر الآن حادثة

جرت بيننا لما دارت المطبعة الأولى في سورية على الآلة البخاريّة فتنفّس فيها المرحوم لحيطه ثمّ قال: هل فهمت ما تقوله هذه المطبعة، قلت لا. قال: كأني كلّما دارت دورة سامعها تقول: إني لإفادة سورية، إني لإفادة سورية. و منذ عرفته إلى آخر حياته كلّما شرع في عمل لم أسمع قط يسأل كم أستفيد من هذا العمل بل كم يؤول هذا العمل إلى إفادة سورية. فضعوا يا شبّان سورية هذه القدوة أمامكم واقتدوا بجبار الأعمال وكلّما شرعتم بعمل ليكن سؤالكم مثل سؤاله: كم يفيد هذا العمل سورية واقتدوا بجهدته الذي لم يعرف التعب ولا الكلال.

وكان من جملة مبادئه أن لا يبخل بإفادة ولا يستنكف عن الإستفادة. فلم يكن من أحد يأتيه يستشيريه إلاّ ولّباه. وصرف كثيرًا من أوقاته الثمينة في مصالح الناس يعينهم تارة على طريقة وتارة على أخرى حسب مقتضى الحال والظروف. ولا أظنّ في زمانه قصده مضطّرّ وذهب خائبًا. فابكوا عليه وولولوا على الذي أنشأ لكم الجرائد والمدارس وأكثر لكم المصنّفات المفيدة ودلّكم على كيف يجب أن يتصرّف الرجال.

أمّا تقواه فلم يكن ممّا نشره لرؤية الناس بل كانت كما يجب أن تكون، أي بينه وبين خالقه، لم يطلع عليها إلاّ من كان أقرب إليه. فرقد على رأي قيامة الأبرار وانتقل إلى تلك الراحة التي لا يخالطها تعب.

كورنيلوس فان ديك،

من كتاب دائرة المعارف، المجلد ٧، بيروت، دار المعرفة، [د.ت.]، ص ٥٩٣-٥٩٤.

###

وقال أديب بك اسحق مؤبّنًا بعيده الدفن في المقبرة:

كذا فليجلّ النظرُ وليفدح الأمرُ
فليس لعينٍ لم يفيض ماؤها عدزُ

إنّ هذا المصاب مصابٌ حسيم. إن هذا الخطب خطب عميم. إنّها لمصيبة وطنية. يقلّ في مثلها بذل الدموع. إنّها لنائبة عموميّة لا يكثر في نظيرها تمزيق الضلوع. أجل إنّ المصيبة فيك مصيبة الوطن يا من أنفقت العمر في خدمته. مقدّمًا مجتهدًا صابرًا متجلّدًا متعمّقًا مستقيمًا. فلا بدع أن تبكيك العيون. ولا غرو أن تنفطر لفقدك القلوب. أو لم تكن فينا مثال الفضل والاجتهاد ونموذج البراعة والأدب. وعنوان التحلّد والثبات في خدمة العلم. بذلت في هذه الخدمة شبابك. ووقفت على هذا السبيل أتعابك. وجعلت العلم غايتك القصوى من دنياك. فكان لروحك روحًا وكنت لذاته قوامًا.

فأي أثر أدبيّ رأيناه ولم تكن أنت البادئ به أو الداعي إليه. وأي مشروع مفيد شهدناه ولم تكن أنت الشارع فيه أو المعين عليه. أو لست أوّل من خطّ على صفحات القلوب ووسم على صحف الجنان: حبّ الوطن من الإيمان. وأوّل من أقدم على المشروعات الجسيمة العلميّة بمهّمة لا تخاف المصاعب والعقبات. ولا تألف إلاّ الصدق والثبات.

بأيّ أثارك لا تُذكر. وبأيّها إذا ذُكرت لا تُشكر. وأيّة عين ترى أعمال يديك، ولا تفيض دمعا بل دمّا حزناً عليك. وما الذي نذكره من أثار اجتهادك في استمرار ارتيادك ولا نبجده عظيمًا. أمواظبتك على خدمة العلم والأدب أربعين عامًا أو تزيد. أم تأليفك وتصانيفك التي تغني بشهرتها عن الوصف. أمحيط محيطك. أم قطر محيطك. أم مدرستك الوطنية التي ملأت الوطن بها أنوارًا. ورفعت للأدب الصحيح فيها منازارًا. أم جنانك التي غرست فيها أغصانًا من العرفان. من كلّ فاكهة زوجان. أم جنتك الزاهرة الدانية القطوف. أم دائرة المعارف التي... كدنا نخاف أن تدور الدائرة عليها لولا الأمل فيمن أبقيت لها خلفًا كريمًا يحقّق رجاء المحبّين ويؤمّن أمنية المستفيدين. أجل يؤمّن الأمنية ويحقّق الرجاء. فيكون به للوطن عزاء.

في الأثر الماثور يا سادتي "من علّمني حرفًا كنت له عبدًا". فمن منّا لم يعلمه هذا الفقيه حروفًا. ومن منّا لم يستفد منه فوائد صنوفًا. من تصانيفه في كلّ فن. من مدرسته الوطنية. من جرائده الزاهرة. من آثار معارفه في كلّ موضوع. ومن منّا لم يدفع الملل في أوقات الفراغ. ويغلب الضجر في ساعات الراحة. وينزه الفكر بعد تعب الأشغال. بتلاوة ما كان فقيدنا يُحیی به الليالي الطوال. فكيف لا نرثيه. وكيف لا نبكيه. وكيف لا نستعظم المصيبة فيه.

أي هذا الرافد تحت ظلال الرحمة والرضوان. لقد عشّت سعيدًا. وقضيت حميدًا فقيدًا. وإن كان عموم الأسف وشمول الحزن ممّا يبرّد ثرى ويجلب غفرانًا، فقد جادتك سحب الرضوان والغفران. مسوقة إلى ثراك من كلّ مكان. مستمطرة على ضريحك بكلّ لسان.

نَم سعيدًا يا من قضيت فقيدًا بجميل قدّمت بين يديكا
أنت أحسنت في الحياة إلينا أحسن الله في الممات إلينا

أديب إسحق،

من كتاب دائرة المعارف، المجلد ٧، بيروت، دار المعرفة، [د.ت.]، ص ٥٩٤-٥٩٥.

###